تقرير عن واقع التيار الأكثر (مثالية) في الساحة الإسلامية : السلفيون الجهاديون في الأردن وضرورة المراجعة

01-8-2002

محمد سليمان

شكلت أحداث 11 سبتمبر تحولاً دولياً واسعاً، تغيراً كبيراً في طبيعة الصراعات الدولية، وقد قفزت الحركات الإسلامية بفعل تلك الأحداث لتصبح عدواً جديداً للمصالح الأمريكية أو ما يسمى بالنظام الدولي الجديد، إلا أن التيار السلفي الجهادي العالمي أصبح رأس الحربة في هذا الصراع، من خلال تنظيمه العالمي الهلامي (القاعدة)·. وقد أتت الحرب الأفغانية على جزء كبير من قوة هذا التيار الكامنة، وقدراته المستودعة في أفغانستان، وأسر مئات وقتل آلاف من أفراده، كما يلاحق الآلاف في مختلف مناطق العالم، وتضيق الدائرة على نشاطاته السياسية والاجتماعية والاقتصادية، بينما تختفي قيادته الحركية العالمية عن عيون القوات الأمريكية والجواسيس الذين يرصدونها ليل نهار·. هذه (المتغيرات) كان لها أثرها البالغ على التيار السلفي الجهادي في الأردن، والذي يفضل أتباعه أن يطلقوا على أنفسهم لقب (الموحدون) وفي هذا التقرير سنحاول رصد أهم المراحل التاريخية لتطور هذا التيار في الساحة الأردنية،

بقلم [محمد سليمان]

شكلت أحداث 11 سبتمبر تحولاً دولياً واسعاً، تغيراً كبيراً في طبيعة الصراعات الدولية، وقد قفزت الحركات الإسلامية بفعل تلك الأحداث لتصبح عدواً جديداً للمصالح الأمريكية أو ما يسمى بالنظام الدولي الجديد، إلا أن التيار السلفي الجهادي العالمي أصبح رأس الحربة في هذا الصراع، من خلال تنظيمه العالمي الهلامي (القاعدة)·. وقد أتت الحرب الأفغانية على جزء كبير من قوة هذا التيار الكامنة، وقدراته المستودعة في أفغانستان، وأسر مئات وقتل آلاف من أفراده، كما يلاحق الآلاف في مختلف مناطق العالم، وتضيق الدائرة على نشاطاته السياسية والاجتماعية والاقتصادية، بينما تختفي قيادته الحركية العالمية عن عيون القوات الأمريكية والجواسيس الذين يرصدونها ليل نهار·. هذه (المتغيرات) كان لها أثرها البالغ على التيار السلفي الجهادي في الأردن، والذي يفضل أتباعه أن يطلقوا على أنفسهم لقب (الموحدون) وفي هذا التقرير سنحاول رصد أهم المراحل التاريخية لتطور هذا التيار في الساحة الأردنية، ومعالم خطابه السياسي، كما ترصد إثر أحداث 11 سبتمبر عليه ونقدم رؤية مستقبلية متوقعة له·

التطور التاريخي نشط التيار السلفي الجهادي في بداية التسعينات، وظهر في البداية من خلال جماعات سرية صغيرة تنتشر في مساجد المملكة في عدة مناطق، وتعتمد على كتب ابن تيمية والشوكاني وسيد قطب ومحمد قطب والمودودي· وكان خطاب هذه الجماعات في البداية - يتركز حول مفهوم (الحاكمية) وتكفير الأنظمة التي لا تحكم الشريعة الإسلامية، وكان يدعو إلى انتهاج سياسة (المفاصلة) مع هذه الأنظمة وصولاً إلى عزلها عن الجماهير وتعريتها، ثم إسقاطها· وتطورت هذه الجماعات بشكل كبير منذ عام 1993، وظهور إرهاصات التحولات السياسية والاقتصادية، وتعززت بشكل كبير ووصل أفرادها إلى المئات، مع توقيع معاهدة وادي عربة، وانقلاب السلطة على ذاتها فيما يخص العلاقة مع الكيان الصهيوني، كما ساهمت سياسات التكيف الهيكلي التي أدت إلى تآكل الطبقة الوسطى، إلى تكريس حالة الرفض الشديدة للتوجهات السياسية والاقتصادية الجديدة وعبرت هذه الجماعات عن إحدى صورها· وفي منتصف التسعينات انتشرت كتب الشيخ أبو محمد المقدسي - بشكل كبير - بين أفراد هذه الجماعات وسدت الفراغ الذي نشأ عن تعطش أفراد كبيرة من الشباب إلى فكر متشدد يقابل التحولات الجذرية، التي شكلت صدمة للمجتمع· وبدأنا منذ تلك الفترة نسمع عن اعتقال عشرات الشباب، وعن قضايا العنف المسلح أمام محاكم أمن الدولة، وتم الكشف عن شخصية المقدسي بعد اعتقاله وهو عصام البرقاوي، من سكان منطقة الزرقاء سابقاً (ياجوز حالياً)، وساهمت شخصية المقدسي الكارزمية العنيدة في ازدياد أعداد التيار وأصبحت كتاباته بمثابة أدبيات رئيسية لهذا التيار· وكانت فترة السجن التي عاشها المقدسي سواء في سواقة والجويدة والسلط والجفر، فترة مناسبة ليلتقي أبناء التيار ويتوحدوا ويتعارفوا، مع أنهم كانوا جماعات متباينة مختلفة، وبدت معالم قيادة فكرية وعلمية تتشكل ممثلة بالمقدسي، وكذلك أبو قتادة في بريطانيا، حيث كانت كتب الاثنين تغذي فكر الشباب وتروي عطشهم، بالإضافة إلى كتب عبد المنعم مصطفى حليمة (أبو بصير) (السوري الذي عاش فترة في الأردن في حي الهاشمي الشمالي، ثم نفته السلطات الأردنية إلى اليمن، حيث يعيش الآن)، بينما تشكلت القيادة الحركية من أبو مصعب الخلايلة، الذي سافر بعد السجن إلى الشيشان، وما زال خارج البلاد، وعدد من القيادات الشابة الأخرى والتي هاجر عدد كبير منها إلى الشيشان ثم مناطق أخرى· إذن، لقد كانت مرحلة السجون والتي امتدت منذ قبيل منتصف التسعينات إلى الآن، مرحلة مناسبة للحوار والالتقاء والاتفاق، وشهدت تلك الفترة نشاطاً ثقافياً مماثلاً تمثل في نشر بعض كتابات (أبو قتادة) و(أبو بصير) كما سربت كتابات المقدسي

من السجن ونسخت ووضعت بطريقة فنية جديدة· ومع اقتراب القرن الماضي من نهايته، انتقل هذا التيار نقلة جديدة، حيث سافر عدد كبير من أبنائه للجهاد الشيشاني، ووصل عدد منهم إلى دول مختلفة أثناء محاولتهم مساندة خطاب ورفاقه، فوصل عدد منهم إلى أفغانستان وإيران وسوريا ورجع عدد آخر إلى الأردن ليجد السجن والمحاكم في انتظاره وتهمة جديدة وهي (تنظيم جند الشام)· منذ عام 2000 وهذا التيار يعيش حالة صدام صارخة مع السلطات الأردنية والأجهزة الرسمية، وأبناؤه مطاردون ويضيق عليهم، بينما أعداد أخرى مكثت في الخارج، وانقطعت أخبارهم، حتى جاءت 11 سبتمبر وظهر فيها الصدام الكبير بين هذا التيار عالمياً وبين الولايات المتحدة، الأمر الذي جعل التيار تحت السياط والملاحقة في كل العالم· في هذه الأثناء جاءت انباء استشهاد عدد من الشباب الذي خرجوا للجهاد في الشيشان نذكر منهم هنا: رائد خريسات، معصتم الدرادكة، لؤي حياصات، وغيرهم، وقد كانت الانباء الأولى ترد بأنهم استشهدوا بفعل القصف الأمريكي إلى افغانستان، فيما تبين لاحقاً أنهم استشهدوا في شمال العراق، وهم (يجاهدون) مع جماعة سلفية كردية ضد تنظيم جلال طالباني· أما في الأردن، فقد استمر التضييق على هذا التيار، وتبديد فعاليته، ولم تفلح محاولة ابنائه في مسيرة (السلط) التي خرجت تأييداً للمجاهدين في افغانستان، بالتعبير عن وجودهم، إذ بدا واضحاً أن حجم الضربات الأمنية أكبر بكثير من حجم النفوذ· فيما يخص المقدسي فهو لا يلبث أن يخرج من السجن حتى يعود إليه، سواء حول إلى محكمة أمن الدولة أم لم يحول، وما يزال رغم الافراج عنه ، وظهور بوادر تحولات فكرية لديه، تحت ضغط كبير ويخضع لمراقبة مكثفة من قبل الاجهزة الرسمية·

معالم الخطاب السياسي

يتميز الخطاب السياسي لهذا التيار بعدة مميزات رئيسية اهمها:

- المثالية: حيث يسود الطابع المثالي الطوباوي عند أبناء هذا التيار، ويتعاملون مع الشؤون السياسية بمنطق ظهوري خلاصي، وهذا يتناقض مع مفهوم السياسة غريباً وإسلامياً، فالسياسة في الشريعة تقوم على تقدير المصلحة الشرعية، وقواعد المصالح والمفاسد، وتقدير الواقع وعيب خطاب هذا التيار أنه يتجاهل الواقع ولا يدرك شروط المكان والزمان التي تشكل اطار الحركة·

- الحدية: فخطابه حدي مطلق، لا يتعامل إلا مع لونين ومستويين، وبالتالي مواقفه السياسية تتميز بالتشدد والصعوبة، ورفض الحلول الوسط·

- ضحالة الثقافة السياسية: لا يهتم ابناء هذا التيار رغم حديثهم الدائم في السياسية بتنمية مدركاتهم السياسية، فالسياسة بالنسبة إليهم: حاكم كافر، ودول كافرة تواجه الدعاة المسلمين، والقراءات السياسية ضعيفة، إلا عند أفراد معدودين، أما أغلب الشباب الجهادي فلا يعير اهتماماً لهذا الشأن· أما معالم خطابهم السياسي فيمكن إجمالها بالنقاط التالية:

أولاً: الحاكمية، يسيطر مفهوم الحاكمية بشكل كبير على أدبيات هذا التيار، وتستند رؤيته لمفهوم الحاكمية على أساس عقيدي، يدخل موضع عدم (تحكيم الشريعة) ضمن دائرة الشرك بالله، بالتالي الحاكم الذي لا يحكم بالشريعة حاكم كافر خارج من الملة·

ليس فقط الحاكم بل النظام والدستور والشرطة والجيش، والكفر لا يقف عند حدود التكفير بالجملة، بل يصل إلى تكفير (المعين)·

ثانياً: المفاصلة، وعلى اعتبار أن هذه الانظمة جاهلية كافرة، فإن الواجب عدم القبول بها، ورفض شرعيتها وعدم الدخول في اللعبة السياسية التي تقوم أصلاً على الاعتراف والدستور·

من هنا فإن المشاركة في الانتخابات النيابية حرام، والنائب مشرك، لأنه أعطى نفسه حق التشريع فيما يخالف الشريعة الإسلامية، ولا يجوز كذلك المشاركة في الانتخابات البلدية والنقابية، لأنها كلها متأسسة على تشريعات مخالفة للشريعة الإسلامية·

أضف إلى ذلك عدم الدخول بالأجهزة العسكرية والأمنية، على اعتبار أنها أدوات بيد الحكام لضرب الحركات الإسلامية، لما في داخل هذه الاجهزة - كما يرى ابناء هذا التيار - من مخالفات شرعية·

ثالثاً: الموقف من الديمقراطية: يظهر موقف هذا التيار من الديمقراطية، من خلال رسالة المقدسي المعنونة بـ(الديمقراطية دين) ويبين فيها أن الديمقراطية هي كفر إذ إنها تقوم على حكم الشعب واعطاءه الحق في التشريع، فيقول المقدسي: (··· أما في دين الديمقراطية والشرك فيقول عبيدها: (وأن احكم بينهم بما ارتضى الشعب واتبع أهواءهم واحذر أن تفتن عن بعض ما يريدون ويشتهون ويشرعون)·· هكذا يقولون·· وهكذا تقرر الديمقراطية، وهو كفر بواح وشرك صراح لو طبقوه·· ومع هذا فالحق أن واقعهم أنتن من ذلك فإنه لو تكلم عن حالهم لقال: (وأن احكم بينهم بما يهذر الطاغوت وملئه، ولا يسن تشريع ولا قانون إلا بعد تصديقه وموافقته··) !! (الديمقراطية دين، ص 7)·

رابعاً: الموقف من الأحزاب السياسية الإسلامية وغيرها: ينظر (الموحدون) إلى الأحزاب الإسلامية نظرة متشككة، إذ يتهمون هذه الحركات والأحزاب بالتخاذل والتراجع والقبول بشرعية (الطواغيت)، بل وتجد في كتاب الشيخ (أبو قتادة) (الجرح والتعديل) جرحاً وإنقاصاً من قيادات الحركات الإسلامية، ووصفها بأبشع الصفات·

ويقف (الموحدون) من الأحزاب السياسية موقفاً رافضاً، على اعتبار أن هذه الحركات لا تقوم أيدلوجياتها على أساس القبول بالشريعة الإسلامية، وبالتالي لا يجوز العمل معها ولا يجوز التوافق معها على قواسم وبرامج مشتركة·

خامساً: الحياة السياسية والإعلامية: نتيجة الرؤى السابقة والتي تعبر عن مواقفهم السياسية فإن التيار السلفي الجهادي يغيب تماماً عن الحياة السياسية العامة، ولا يتعامل مع معطياتها·

وبالتالي هناك عدم قدرة من القوى السياسية على فهم هذا التيار، وباب الحوار مغلق تماماً، كما يدخل أبناء التيار الجهادي في دوامات المحاكم ويخرجون ويسجنون ويتصادمون مع الحكومة، كل هذا بعيداً عن جوهر الحياة السياسية، ودون تحديد خطاب سياسي واضح يقدمه هذا التيار ضمن المعترك السياسي·

سادساً: الموقف من أمريكا والصهيونية: انتقل هذا التيار نقلة نوعية في منتصف التسعينات على المستوى العالمي، وجدت تجلياتها في الدول العربية، فقد تحول هذا التيار من قصر صراعه السياسي، وقد يكون العسكري، مع الحكومات العربية إلى توسعته ليشمل ضرب المصالح الأمريكية والصهيونية في العالم، على اعتبار أن أمريكا هي (رأس الشر)·

وفي الأردن بدأ يتوجه جزء من خطاب هذا التيار السياسي إلى الحديث عن الاختراق الصهيوني، وعن مقاطعة البضائع الأمريكية، وعن دعم القضية الفلسطينية·

سابعاً: منهج التغيير، يعتمد منهج التغيير عن التيار السلفي الجهادي على نشر أفكارهم العقيدية والشرعية بين أكبر عدد ممكن من الناس، والتعريف بمفاهيم التوحيد والشرك والكفر، من خلال الاجتماعات في الساحات العامة واللقاءات الفردية والمساجد كما يقوم على تشكيل حلقات سرية تقوم بدراسة هذه العلوم وتساهم بنشرالدعوة، بالإضافة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر· وفي حين اتخذ هذا التيار طابعاً عسكرياً في العديد من الساحات كالشيشان وأفغانستان والصومال، واستخدم السلاح في ميادين أخرى كاليمن ومصر وليبيا والجزائر، إلا أنه في الأردن يركز على الجانب السلمي في الدعوة، لكن ما زال هناك تخوف من قبل الأجهزة الرسمية من احتمالية اللجوء إلى العنف، الأمر الذي أدى إلى اتهام عشرات من شبابه بالتخطيط لعمليات مسلحة·

أما الأدبيات التي تشكل أدوات التثقيف والتنشئة السياسية لدى هذا التيار فأهمها: كتابات سيد قطب، والمودودي (خاصة كتابه المصطلحات الأربعة)، كتاب أبو قتادة (الجهاد والاجتهاد··)، كتاب أيمن الظواهري (الحصاد المر)، كتب الجماعات الإسلامية في مصر مثل: ميثاق العمل الإسلامية، الفريضة الغائبة، حتمية المواجهة، وكتب (أبو حليمة) قواعد في التكفير، الطاغوت···

بينما تعد كتب ورسائل المقدسي من أهم أدبيات الجماعة، مثل كتاب (ملة إبراهيم وأساليب الطغاة في تمييعها)، وكشف شبهات المجادلين عن أنصار وعساكر القوانين)، (الديمقراطية دين)، (الإشراقة في سؤالات سواقة)·

ما بعد 11 سبتمبر تأثر التيار الجهادي في الأردن بأحداث 11 سبتمبر كما تأثرت الحركات الجهادية في العالم، وشهدت هذه الفترة أنباء عن استشهاد عدد من الشباب الذين غادروا في الأصل للجهاد في الشيشان، لكن أنباء استشهادهم تباينت بين العراق وأفغانستان· وشهدت السنة الماضية سفر أعداد من الشباب إلى العراق مع انتعاش الحالة الجهادية في مناطق كردستان، إلا أن الأمور عادت وانتكست مع توحد القوى السياسية الكردية ضد هذه الجماعة، كما أن الولايات المتحدة قد وضعت عينها على تلك المنطقة، ورصدت نشاط الحركة الجهادية هناك، وبدأت بعملية ضربها· وقد عاد عدد من أبناء هذا التيار إلى الأردن، وتعرضوا للاعتقال، وكان شباب آخرون قد خرجوا من السجون، بينما حملات الاعتقال والمحاكمة ما زالت قائمة، وازدادت حدة الاعتقالات وقوتها قبل أشهر على خلفية تفجير سيارة أحد ضباط الأجهزة الأمنية، فاعتقل العديد، وأفرج لاحقاً عن أغلبهم بينما ما يزال البعض رهن الاعتقال·. ورغم ازدياد نشاط هذا التيار في عدة مناطق في السنوات الأخيرة خاصة في الزرقاء وإربد والسلط ومعان، إلا أنه ونتيجة الضربات الأمنية المتلاحقة ضعف وفتر، ويعاني حالة من الإرهاق، مع ظهور صورة التيار الجهادي العالمي وأفراده ملاحقون ومطاردون، كما أن موطن الجهاد في أفغانستان (التي تحتوي على قواعد التيار الجهادي العالمي) قد تلاشى وزال·. هذه الظروف القاسية، بدأت تفرض نفسها بقوة على أبناء هذا التيار، والذين آن الأوان لهم ليقوموا بعملية مراجعة كاملة، وهذا هو موضع البند الأخير·

رؤية مستقبلية بدأت الجماعة الإسلامية المصرية مراجعات كبيرة في العقيدة والفكر والحركة، ولقيت هذه المراجعات صدى واسعاً لدى الاتجاهات السياسية ووسائل الإعلام، الأمر الذي أخرج الحكومة المصرية ودفعها باتجاه إيجابي نحو هذه المبادرات، وهذه المراجعات هي نتيجة فشل كبير منيت به الحركة الجهادية المصرية، فعادت اليوم من العنف إلى الدعوة المدنية السلمية· وهذه المراجعات - رغم اختلاف طبيعة الظروف السياسية - لا بد أن تكون مؤشراً مهماً للتيار الجهادي في الأردن ليقوم بعملية مراجعة مماثلة فالتيار السلفي الجهادي الأردني لم يقتل مدنيين أو أبرياء، ولم يتورط في أعمال عنف، بل يمتاز أفراده بأنهم من جيل الشباب، ويتسمون بالصفاء والنقاء، والتعبد وسيادة عنصر الأخلاق في ممارستهم الحياتية· لكن المشكلة هي بكلمة واحدة: في (مثالية) هذا التيار، حيث إنه يختزل القضايا الكبرى ويلغي أبعاداً مهمة وخطيرة في الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية، كما إنه يريد اختصار المسافات في مشروع التغيير الحضاري·. هذا التيار بحاجة إلى قراءة واسعة وعميقة للمعارف والعلوم، والتي ستساهم في توسيع افقه الفكري، وتحويل طابعه الحركي إلى (المرونة) بدلاً من التشدد· والخطورة البالغة الا ينتبه اصحاب الرأي فيه إلى اهمية المرحلة وصعوبتها، وإلى الاجندة الأمريكية والتي تنفذ بشكل كبير في الدول العربية، المتحالفة معها· باختصار المطلوب امريكياً في المرحلة القادمة ضرب هذا التيار والقضاء عليه من خلال تشويه صورته وتحويل ابنائه للمحاكم والمعتقلات، فهل سيقدم هذا التيار نفسه (ضحية) لواقع سياسي واقتصادي وثقافي رسمي فاسد - بلا نقاش - ولكنهم ضحية بلا ثمن!!· إن الحركة السياسية والاجتماعية تتطلب فكراً واقعياً، والسياسة الشرعية تقوم على تقدير المصالح والمفاسد، وفقه الموازنات والأولويات، كما أن السنن الكونية تستند على التدرج والمراحل·

وأضف إلى ذلك أن من الخطأ تحميل السياسة وحدها مسؤولية بؤس الواقع، وإنما هناك دور مهم للثقافة التي حولت الأمة من حالة الفاعلية إل حالة (الجمود) والعجز، فالمطلوب جهاد ثقافي اجتماعي سياسي والحوار مع الآخر، وهذا يتطلب اثراء ثقافة هذا التيار بقراءات متعددة ومختلفة، وهذه هي أدوات الصراع الحقيقي· نهمس في آذان أبناء هذا التيار، ونقول لهم، إن حل مشكلة الأمة وخروجها من هذا النفق الحضاري، لا يكون بأن نحفظ بعضاً من الآيات ونخرج إلى الناس نطالبهم بالتغير مرة واحدة، وإلا كانوا عصاة مذنبين·. إن كفاح حالة التخلف – وأحد أسبابها تناقض مناهج الحكم مع دين الناس ورغباتهم- لا يكون إلا بتكامل الجهود وتضافرها في شتى المجالات السياسية والفكرية العلمية، والثقافية··، والقبول بالقواسم المشتركة وبلغة الحوار واحترام عقول الناس، والأخذ بمنطق الحكمة والعقل بتجنب مفاسد كبرى ستحدث عندما نغيب الشروط السابقة·